التعاون

نظام تدعو إليه الطبيعة الإنسانية

تدل حركات الإنسان وسلوكه على أنه فى كل ما يقوم به ، يخو نواحى خاصة تتفق مع الحالات التى يوجد فيها ؛ وتدل على أن كل ما يأتى به من الأعمال إنما هو فى الواقع استجابة لمطالب الحياة ، تلك التى يدفعه اليها مؤثران : أحدهما خارجى ، والآخر داخلى وهو ما يعبر عنه بالميل أو الغريزة . والتعاون إحدى تلك الغرائز الفطرية الموجودة فى الانسان ، ودليل ذلك أنه يحس الحاجة الدائمة إلى المساعدة تفد إليه من قريب تدفعه صله الرحم ، أو صديق تسوقه المحبة والوفاء ، أو جار يغريه اتفاق المصالح . ودليل ذلك أنه يحس الحاجة إلى المعونة تسدى إليه من أناس غير هؤلاء جميعا . أناس لا تربطهم به صلة غير صلة الانسانية العامة . وما ذلك إلا لأنه مدنى بطبعه لا يستطيع العيش وحده والانزواء فى ناحية من نواحى الحياة التى تعددت فيها طرق الرزق وأسباب العيش ، واشتد فيها التنافس والتهافت ، وتزايد التزاحم على مغانمها بشتى الوسائل والحيل .

والانسان الذى يشعر بالحاجة إلى هذ المساعدة وهذه المعونة يحس أنه مدين بحياته ووجوده للمجتمع ، وهو لذلك لا يستطيع أن يباعد بينه و بين الناس ، ولو حاول ذلك لأحس العجز والقصور ، كما لا يستطيع أن ينقطع عن العالم و يتجرد من كل ما كسبه منه ولو عاش فى مكان بعيد .

* * *

وقد شعر الانسان بحاجته إلى من يساعده و يعاونه منذ فجر التاريخ ، ولذلك نراه يسعى إلى تكوين الأسرة حتى يكون أطفاله اذا شبوا وترعرعوا ساعده الأمين ، وقوته التى يدخرها لزمن الحاجة والعوز . وحتى تكون زوجه معين الشفقة والحنان والتشجيع الذى لا ينضب . ثم نراه يسعى — وقد تم له ما أراد من تكوين الأسرة والاطمئنان إلى الحياة المنزلية البسيطة المحدودة — إلى توسيع الدائرة و إقامة صرح القبيلة لمساعدة أفرادها على حماية الديار ، و بذل العون فى الشدة ، والجهاد لتذليل صعاب الحياة الكثيرة المتشعبة ، وتيسير سبل العيش الذى تعددت نواحيه .

ولما اشتبكت مصالح القبائل ، واتفقت فى كثير من الرغبات ، واختلفت فى كثير غيرها ، سعت تلك القبائل المتفرقة المنتشرة فى كل بقعة من بقاع الأرض إلى تكوين الأمم وإنشاء الهيئات التى تشرف على هذه المصالح والرغبات ، والتى تقوم على تنظيم طرق المعاملات ، والسهر على حماية الفرد والمجموع .

ولم تكن الأمم المختلفة التى تكونت فى أنحاء العالم أقل حاجة من الأفراد إلى التعارن ، ولذلك سعت كل منها إلى إيجاد الروابط الثقافية والتجارية والحربية والسياسية مع غيرها القريب منها والبعيد .

ومما دفع الأمم إلى تحسين تلك العلاقات الخارجية وتوطيد صداقتها مع غيرها على دعائم قوية ثابتة إرادة الله فى أن تكون خيرات الأرض موزعة على العالم كله ... تكثر فى أمة ، وتقل فى غيرها ... وقد دعا ذلك التوزيع العادل إلى تبادل ما يفيض عن حاجة الأمم من هذه الخيرات مع غيرها من الأمم التى هى فى حاجة إليه ، وليس أدل على حاجة الأقطار المختلفة بعضها إلى بعض مما نشاهده عند قيام الحروب ، وقطع المواصلات بينها ، وتعذر نقل المواد المختلفة من كساد التجارة ، وشعور الأمم المتحاربة وغيرها بأزمات اقتصادية شديدة تكاد تهد كيانها ...

ولو كانت أية أمة من الأمم تستطيع أن تعيش فى معزل عن غيرها لما رأينا للمعاهدات التجارية وتبادل الصادرات قيمة ، ولما فكرت انجلترا مثلا فى أن تبدأ حربها الحالية بإعلان الحصار البحرى ضد ألمانيا ، وفى منع اتصالها بغيرها حتى يفقد المدخر عندها من المواد ، ويحس الشعب بالشدة والعسر فتضعف لذلك روح العزم والثبة فيه ...

* * *

ولما كانت مشاكل الحكومات المتراكمة ، وأعباء الهيئات الكثيرة لا تمكنها من توفير أسباب العيش لكل فرد من أفراد الشعب ، فقد رأى كثير من أولئك الأفراد أن يسعوا لحماية أنفسهم ، وأن يجدوا لتوفير كل ما هم فى حاجة إليه وإلا أصابهم الفقر والضيق ... وكانت وسيلتهم إلى توفير تلك الحاجات الضرورية التى يحفظون بها كيانهم تكوين جمعيات تعاونية تسهر على حماية مصالحهم وتنظم لهم سبل التعاون . وقد فكروا فى إيجاد تلك الجمعيات منذ منتصف القرن الماضى على أثر انتشار البطالة والفقر بين العمال نتيجة ظهور المخترعات الحديثة التى أفصت كثيرا من العمال عن دائرة أعمالهم ، والتى ضخمت عدد العاطلين وقللت من الأجور ... وقد رأى طالبو الإصلاح أن يستعينوا على مغالبة الفقر الذى صار إليه أولئك البائسون بجمع كلمتهم ، واتحادهم ، وتضامنهم ، وإنشاء جمعيات تعاونية تساعدهم على تحقيق

ما يجاهدون من أجله ... واستطاع أولئك المصلحون الذين لم يدخروا وسعا فى العمل لصالح أولئك المساكين أن يذللوا إلى حد ما من الفقر وما يتبعه من إجرام، وأن يحرروا العمال من تحكم أصحاب رءوس الأموال ، وأن ينموا ثروة الأمم بالبحث عن موارد جديدة وترقية الموارد القديمة .

وتقدم العالم خطوات نحو الحضارة والرقى ، وكثرت لذلك تكاليف الحياة وتنوعت مشاكلها، ووجد الإنسان نفسه مكلفا أدية كثير من الواجبات ، كما وجد نفسه حائرا أمام كثير من الحاجات والمطالب... وأشعره ذلك بأن حاجته إلى التعاون تزداد يوما بعد يوم ... وجد الإنسان نفسه فى حاجة إلى من يساعده على تهيئة طعامه وشرابه ، وإلى من يعاونه فى إعداد ملبسه ومسكنه ، وإلى من يشاركه فى إعداد أرضه وملاحظة زرعه ، وإلى من يشد أزره فى شدته وضعفه ، وينصره على عدوه وخصمه ... ازدادت حاجة الإنسان إلى التعاون فى شتى نواحى الحياة، وأدى ذلك إلى توزيع الأعمال ، وتخصص كل طائفة لعمل، فالتعاون الزراعى والمالى والمنزلى نواح للتعاون مستقلة ولكنها تؤدى للقائمين بها ما يطمعون فيه من الفوائد والخدمات ...

*
* *

من هذا كله نرى أن الحاجة إلى التعاون أمر غريزى فى الإنسان ، لازمة منذ وجد على ظهر الأرض ، دفعته إليه طبيعة الحياة ، والرغبة فى منع الشر عن نفسه وجلب الخير لها . . ولم تنقطع رغبته فى المعونة تقدم إليه من كل من يتصل به كلما تقدم به الزمن وخطا العالم نحو المدنية ، وإنما دعاه ذلك التقدم وهذه المدنية إلى الإلحاح فى طلب تلك المعونة ثم تنظيم الاستفادة منها عن طريق الجمعيات التعاونية المنتشرة فى كل مكان .

يقول الدكتور ابراهيم لبك رشاد فى كتابه التعاون الزراعى " إن التعاون أمر غريزى وجد فى الانسان منذ نشأته ، فليس هو من مبتكرات المدنية والحضارة، بل هو أمر طبيعى تدفع إليه الحاجة المشتركة، إذ أنه موجود فى كثير من أنواع الحيوان والنبات ، ولكن الحضارة هى التى وضعت له النظم ، وقد دفع الإنسان إلى وضعها بدافع الحاجة إليها ، فاسترشد فى ذلك بنور العرفان والتجارب التى أكسبه إياها مر الزمان وأعمال السالفين " .

ومما لاشك فيه أن التعاون أقيم على أساس خدمة الفرد والمجموع، ولذلك كان أول مبادئه " الفرد للمجموع والمجموع للفرد " . وليس من شك فيما يصيب الخلايا الإنسانية من تقدم ونجاح على يد التعاون الذى هو تضامن الجهود لتأدية كثير من الخدمات للفرد والمجموع على حد سواء .

ويقول الدكتور يحيى أحمد الدردير فى كتابه التعاون: "إن اجتماع الجهود لدفع الشر وجلب الخير ليس خاصة من خواص الإنسان وحده بل يشاركه فى ذلك كثير من أنواع الحيوانات سواء فى ذلك صغارها وكبارها . فإن تضافر القوى الصغيرة فضلا عما فيه من حفظ النوع هو الوسيلة إلى النجاح والتغلب على عوادى الحياة وشرورها . وكذلك هو سبيل الوصول إلى أكبر نصيب من رغد العيش والطمأنينة فى الحياة" .

و إذا كان هذا بعض ما يؤديه التعاون فإنا نرجو أن تثبت أقدام الحركة التعاونية فى مصر، وأن تجد فى إدارة التعاون و زرة الشؤون الاجتماعية خير عون على ازدهارها ونجاحها فى تأدية الرسالة السامية التى أخذتها على عاتقها وتكفلت بنشرها بين طبقات الشعب المختلفة .

— قادة الثورة مقودون بها كالجلاميد تقدمت السيل تحسبها تقوده وهى به مندفعة .

— الثورة جنون طرفاه عقل .

— تغطى الشهرة على العيوب ، كالشمس غطى نورها على نارها .

— المرء كلف بما ألف .

— لا رعد مع صحو ، ولا كوعيد العاجز لغو .

— لا أعلم لك منصفا إلا عملك ، إذا أحسنته جملك ، و إذا أتقنته كملك .

شوقى